

البحوث الطلابية كأسلوب لجمع التراث

قراءة في إشكالية الأعداد العلمية

الدكتورة نعيمة رحمانى

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان-

مقدمة

جمع التراث المادي واللامادي يعد صونا وحفظا له من الضياع. وقد انتهجت العديد من الدول أساليب مختلفة لجمعه؛ وسخرت لذلك المراكز المختصة والهيئات والمنظمات. ولكن أين يكمن دور الجامعة ودور الطالب في جمع التراث؟ نحن نعلم ان الجامعة تحوي العديد من الدراسات حول التراث المادي واللامادي ولكن جلّها حبيسة الرفوف في المكتبات ومواضيعها متناثرة هنا وهناك.... إذن السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح؛ كيف نوظف جهود الطالب لخدمة التراث؟ وكيف نستفيد منها بشكل عقلاي وممنهج؟

سنحاول في هذه الورقة التركيز على هذه النقطة الهامة والمغيبية في نفس الوقت.

1) الشبكة المفاهيمية

أ- تعريف البحث العلمي:

البحث العلمي محاولة لاكتشاف المعرفة والتنقيب عنها وتنميتها وفحصها وتحقيقها بتقص دقيق ونقد عميق، ثم عرضها عرضا مكتملا بدكاء وإدراك يسير في ركب الحضارة العالمية، ويسهم فيه اسهاما إنسانيا حيا شاملا.⁽¹⁾

ب- تعريف أدوات البحث العلمي:

هي مجموعة من الوسائل والطرق والأساليب المختلفة، التي يعتمد عليها الباحث في الحصول على المعلومات والبيانات اللازمة لإنجاز البحث.

ان طبيعة الموضوع او المشكلة هي التي تحدد حجم ونوعية وطبيعة أدوات البحث، كما ان براعة الباحث تلعب دورا هاما في تحديد كيفية استخدام هذه الأدوات. ومن أهمها؛ العينة، الملاحظة باختلاف أنواعها، الاستخبارات المختلفة، المقابلة، أساليب القياس، الاستبيان، المصادر والوثائق المختلفة، الوسائل الإحصائية. (2)

ج- تعريف التراث:

التراث لغة من ورث واصل التاء في تراث واو أي وراث، والورث والآراث والآراث والتراث واحد. والتراث والميراث ما ورث. (3) أما اصطلاحا فتعدد مفاهيمه بحسب تعدد الاختصاصات، ولكن المتفق عليه من قبل اغلب الباحثين انه يمثل كل ما توارثته الأجيال عبر الزمان سواء كان ماديا او معنويا.

د- تقسيم التراث الشعبي:

هناك عدة تقسيمات للتراث ولكن أهمها التقسيم الرباعي للجوهريوهو يضم: (4)

1-المعتقدات والمعارف الشعبية

2- العادات والتقاليد الشعبية

3-الأدب الشعبي وفنون المحاكاة

4- الفنون الشعبية والثقافة المادية

2) كيفية توظيف البحوث الطلابية في حفظ التراث بنوعيه

يقوم البحث العلمي أساسا على طلب المعرفة وتقصيها والوصول اليها، ويستعين في ذلك بمنهج وأساليب معروفة أكاديميا. لكن كيف يكون البحث العلمي أداة تساهم في عملية الاحياء الثقافي للتراث بجميع جوانبه؟ وكيف يساعد في الحفاظ على الهوية الفردية والجماعية؟

ان المادة التراثية الموجودة في مجتمعاتنا لن تظل ماثلة الى الأبد⁽⁵⁾ فهي تتأثر بعملية التغيير والتغير لهذا يتعين علينا ان نبذل جهودا إضافية من أجل المحافظة على تراثنا.

وعملية الحفاظ على تراث الامة هي مهمة العديد من المؤسسات منها؛ الوزارات المختصة في الثقافة والتربية والسياحة والمنظمات والجمعيات وغيرها... ولكننا نجدها تقوم بأبحاث في هذا المجال بطريقة غير ممنهجة أحيانا، وغير منظمة بحيث لا تتبع معايير علمية موحدة. وهنا يأتي دور الجامعة في دراسة وجمع وحفظ التراث بنوعيه ولكن بطريقة علمية وعملية سليمة متفق عليها من قبل الأكاديميين.

المعروف في الوسط الأكاديمي أن أساليب او أدوات البحث العلمي عديدة ومتنوعة والأكثر شيوعا هي الاستمارة والمقابلة والملاحظة، وهي تستخدم بهدف اختبار فرضيات البحث او الإجابة على التساؤلات.⁽⁶⁾ لكن تختلف مسميات هذه الأدوات فأحيانا تسمى تقنيات وأحيانا أخرى طرائق، وتارة أداة وتارة أخرى أساليب، ولكنها في النهاية تؤدي نفس الدور مهما اختلفت المسميات.

أثناء مراجعتنا لكتب المنهجية المختلفة وكتب التراث، اثار انتباهنا تصنيف الباحث الجوهري لأدوات البحث العلمي، حيث اعتبرها أساليب تساعد في جمع التراث وأضاف اليها أنواعا أخرى. وعند اطلاعنا عليها وجدناه يتطرق الى نفس النقطة التي حاولنا ان نعالجها في هذه الورقة؛ وهي استعمال البحوث الطلابية من اجل جمع التراث. وقد تحدث عن أساليب جمع التراث وحصرها في الوسيلة الأولى وهي دليل العمل الميداني، اما الوسيلة الثانية فكانت طريقة الاستكشاف (أي كتابة تقارير عن التراث بنوعيه وجمعها)، في حين اعتبر البحوث الطلابية (هذه هي

الوسيلة التي تهمنا هنا) كوسيلة الثالثة، اما الوسيلة الرابعة فكانت جمع المادة من المدونات (المخطوطات مثلا)، والوسيلة الخامسة هي متاحف الفلكلور كمصدر لجمع المادة، وآخر وسيلة وهي السادسة تمثلت في الملاحظة بالمشاركة.⁽⁷⁾

نلاحظ ان الانثروبولوجي محمد الجوهري قد ذكر العديد من الوسائل المتاحة لجمع التراث، لكن اهتمامنا ينصب حول الأسلوب الخاص بالبحوث الطلابية. وقد ذكر بان «هذا الأسلوب يقوم على استخدام البحوث التي يجريها الطلاب الجامعيون... في جمع مادة ميدانية عن عناصر التراث الشعبي. وهذه البحوث تحقق ميزة الشمول والاتساع، كما تتميز بخاصية الانضباط والتوحيد في مواصفات المادة المجموعة. وهي... وسيلة لبذر الاهتمام بالتراث الشعبي في نفس قطاع عريض من الشباب.»⁽⁸⁾

وفي عرضه لهذه الوسيلة ذكر ان الباحثة علياء شكري قد نشرت دراسة شاملة وموسعة حول هذه الوسيلة الهامة في جمع التراث. وقد قامت هذه الأخيرة بشرح ملامح هذه الطريقة بكل تفاصيلها ودقائقها. حيث ركزت على البحوث الطلابية، وكيفية تكليف الطلبة بالقيام ببحوث في التراث، وذكرت المحاسن والمساوئ والصعوبات.

والى جانب ما ذكرته نضيف انه يمكننا تكليف الطلبة والاستفادة من بحوثهم الميدانية من جهة، ومن جهة اخرى لا يجب علينا ان ننسى البحوث الطلابية المنجزة قبلا، والموجودة على رفوف المكتبات. إذ يجب علينا أيضا الاستفادة منها من خلال جمعها وتصنيفها حفاظا على تراثنا المدروس والمنسي.

ومن هنا يكون لدينا طريقتين؛ تتمثل الطريقة الأولى في تكليف الطلبة ميدانيا، اما الثانية فتستعين بالبحوث الطلابية المنجزة من قبل. وهكذا سنتجنب تكرار الدراسات الموجودة، بل يمكننا ان نستفيد منها قدر الإمكان.

يمكننا ان نجسد هذا المشروع الأكاديمي الهام من خلال تكليف الأساتذة المهتمين بالتراث، والذين لديهم ميولات في هذا الميدان باختيار الطلبة المهتمين أيضا بهذا النوع من الدراسات والذين لديهم رغبة (وهذه نقطة هامة حتى لا يكون هنالك اشكال اثناء القيام بالبحوث) في دراسة هذا الميدان من اجل اختيار المواضيع التي لم تدرس من قبل

ومحاولة دراستها. كما يمكن أيضا القيام بدراسة وجمع التراث من خلال مشاريع يشترك فيها الأساتذة مع الطلبة المهتمين بموضوع التراث.

إذا ما اعتمدنا هذا الأسلوب في جامعتنا فسوف يتيح لنا جمع المادة التراثية، وتصنيفها من اجل ان نشارك في الحفاظ على تراث الأمة من الضياع بشكل علمي أكاديمي.

وبالنظر الى إيجابيات وسلبيات هذه الوسيلة في حفظ التراث، نجد ان الانثروبولوجي محمد الجوهري قد أشار الى ذلك قائلا: " هذه الطريقة لها ايجابياتها، كما ان لها بعض السلبيات. فهي تتميز بحماس الطلاب، وولائهم لأستاذهم، ورغبة المحيطين بهم من أهلهم في معاونتهم... ولهذا الأسلوب سلبياته... فالطلاب متفاوتو القدرات والمواهب والميول، ولا يمكن ان يتحرك عدد كبير منهم بنفس الحماس... وقد يستشعر الطالب حرجا من الكلام عن بعض عناصر التراث الشعبي... وقد يميل الطالب الى التدخل في المادة بالحكم والتقييم والحذف والتعليق ومحاولات التفسير، وتلك كلها أمور تسمى الى المادة"⁽⁹⁾.

بعد اقتراحنا لاعتماد هذا الأسلوب في جمع تراثنا، يمكننا ان نتوقع ان هذه التجربة العلمية تساعد بالدرجة الأولى على الحفاظ على التراث، كما انها تعزز التواصل ما بين الأساتذة والطلاب وتشجع التعاون البحثي بينهم، وترتقي بالإبداع الفكري، وتطور مهارات الطالب. كما تقوم أيضا بالحث على التدريب العملي الميداني والفهم الجيد للحقل الميداني. ومن هنا يمكننا معرفة كفاءة البحوث الطلابية في جمع المادة التراثية.

وكنقطة أخيرة يمكننا القول ان التراث يجب ان يكون مرتبطا بمجتمعه المحلي، ويعاد ابداعه باستمرار، ويورث من جيل الى جيل. فبعض عناصره تصبح عرضة لخطر الفناء او الاندثار ان لم تلق المساعدة. وصون التراث لا يعني تجميده وتثبيتته بل هو نقل المعارف والمهارات والمعاني، أي توريثه من جيل لآخر.⁽¹⁰⁾

خاتمة :

من شان عملية صون التراث الثقافي ان تزيد من الوعي بأهميته بالنسبة الى الهوية الفردية والجماعية. ويجب ان تكون هذه العملية هادفة وذات مضمون عملي، وليست مجرد عملية نظرية. كما يجب ان يكون هنالك مشاريع طلابية منظمة لدراسة التراث يشرف عليها مجموعة من الأساتذة المهتمين بالتراث والذين يخططون له بشكل علمي وعملي جيد. مع تخصيص مثلاً جائزة في إجداد البحث العلمي حول التراث، كتحفيز لاختيار هذه النوع من البحوث التي تساهم بشكل كبير ومباشر في الحفاظ على الهوية الوطنية وعدم طمسها وضياعها، وتشجع الطلبة على نشر ثقافة البحث العلمي في مجال التراث ورفع جودته.

المراجع المعتمدة:

- 1- ثريا عبد الفتاح، منهج البحوث العلمية للطلاب الجامعيين، بيروت، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، 1960، ص 24.
- 2- ماثيو جيدير، منهجية البحث العلمي، ترجمة ملكة ابيض، ص 28
- 3- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الجزء 2، ص 200
- 4- محمود مفلح البكر، البحث الميداني في التراث الشعبي، منشورات وزارة الثقافة، مديرية التراث الشعبي، دمشق، 2009، ص 73
- 5- محمد الجوهري، مقدمة في دراسة التراث الشعبي المصري، جامعة القاهرة، 2006، ص 57
- 6- القحطاني وآخرون، منهج البحث في العلوم السلوكية مع تطبيقات spss، كلية إدارة الاعمال، جامعة الملك سعود، 2013، ص 287

7- محمد الجوهري، مرجع سابق، ص 57- 77

8- المرجع نفسه، ص 64.

9- المرجع نفسه، ص 65.

10- تحديد وحصر التراث الثقافي غير المادي، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، ص 4